الجزائر والبيزنطيون (534-647م)

جاءت الامبراطورية البيزنطية عام 330م محل الامبراطورية الرومانية، واتخذت من القسطنطنية عاصمة للمسيحية، ويرجع الفضل في تأسيسها إلى **قسطنطنيوس** الذي نقل مقر الحكم من روما إلى القسطنطينية، والسبب في ذلك أن هذه البلاد لم تعرف حملات عزو كما عرفتها روما ولم تتلق ضربات قوية مثلها. ولم يتخل الأباطرة أبدا عن محاولات إعادة غزو المقاطعة المفقودة، فقد حاولت كل من روما والقسطنطينية في جولات عديدة إسقاط نظام الوندال، وانتهت حملة 468م الكبرى بنكبة مأثورة. إن اغتصاب السلطة من طرف **جيليمار**، والذي كان يعيب على الملك الوندالي **هلدريق** هزائمه أمام البربر، وتسامحه إزاء الكاثوليك، قد وفر بالنسبة لهذا الأخير فرصة التدخل في إفريقيا. حيث ناشد أنصار الملك المهزوم، والتجار الشرقيون والارستقراطية الكاثوليكية والرومانية الإمبراطور البيزنطي لدعم **هلدريق** بواسطة السلاح، ووعد بالنجاح تنبؤ أحد اساقفة الشرق القديس **ساباس**، فقرر **جستنيان** نقل الحرب إلى إفريقيا. إلى جانب الأسباب الدينية: وصول عدد كبير من المبعدين الأفارقة والأساقفة المعذبين بشدة لأجل إيمانهم؛ وجدوا مساندة من طرف معارضة في حاشية **جستنيان**.لذا أسندت قيادة الحملة إلى **بليزار**، الذي غادر بجيش قوامه 15000 رجل منقولين بواسطة 500 مركب؛ مرفوق بـ 92 مراقبة بحرية القسطنطنية يوم 22 جوان 533. وكانت الظروف مناسبة لبليزار؛ فالجيش الوندالي لم يكن يتجاوز في مجموعه: 30 إلى 40 ألف محارب، ولم يكن للوندال حماسات بدايتهم الحربية. حيث لم تلعب البحرية الوندالية أي دور لتغطية سواحل إفريقيا أو إعاقة الانزال البيزنطي. ووقفت الكنيسة الكاثوليكية والارستقراطية الرومانية إلى جانب الإمبراطور. حيث كان السير إلى قرطاجة نزهة عسكرية؛ سهلتها الترتيبات الترتيبات الجيدة التي اتخذها الإكليروس والكاثوليك وحياد قبائل المور.

لقد فتح انتصار **ديسيموم** أبواب **قرطاجة**، بعد ثلاثة أشهر سلم جيليمار نفسه "مارس 534م). وانتهت حرب الوندال وخلال ثلاثة أشهر اختفت مملكة **جنسريق**.كما ذكرنا سابقا على جيوش الوندال وبانتصار **بليزار** أصبحت إفريقيا الشمالية خاضعة للحكم البيزنطي، واستولى من بعدها على جميع الأراضي التي كانت بحوزة الوندال في نوميديا أو سردينيا والبليار، ثم بنى حصونا في الأراضي المحتلة من الشمال الافريقي لحمايتها من العدوان الخارجي، وعند رحيله عين مكانه مساعده **سليمانSolomon** حاكما على نوميديا، واتخذ من قرطاجة عاصمة له. ولم يمتد نفوذ البيزنطيين إلا على الشريط الساحلي في الجهات الغربية. أما الناحية الشرقية فقد مدوا نفوذهم إلى الجنوب، وسيطروا على مدن: تبسة وخنشلة، وتمقاد، ولمبيس، والمسيلة، وطبنة(بريكة).

خلص **بليزار** البلاد من الوندال، ونقل إلى الشرق نخبة القيادة في الجيش الوندالي، وأضحى الجنود عبيدا، ووزعت النساء والأطفال على المنتصرين، كما صودرت أراضيهم

وسمح للملاك القدامى بتقييم حقهم، واضطهد الوندال في دينهم أيضا، واختفوا شيئا فشيئا دون أن يتركوا أثرا. واستقبل الاكليروس والرومان البيزنطيين بحفاوة، فعاملهم جستنيان برقف كذلك. واستعادت الكنيسة أملاكها واستفادت من كل الامتيازات التي منحت للكنائس الميتروبولية، فتمكنت من إشباع غلها ضد مضطهديها: الأريوسيين، واليهود والدوناتيين والوثنيين، وتمكن السكان الرومان هم أيضا من المطالبة بأراضيهم التي سلبها الوندال.

ولم يحسن البيزنطيون كغيرهم ممن سبقوهم معاملة البربر؛ ففرضوا عليهم ضرائب فاحشة مما جعلهم يستنفرون منهم، ولما كانت معاملة البيزنطيين للأهالي سيئة فقد صادفتهم صعاب كبيرة، وقامت ضدهم في البلاد ثورات وطنية متعددة، فعرف عهدهم عدة ثورات بربرية متتالية وعنيفة عمت كل أرجاء الشمال الإفريقي، لم تتوقف إلا برحيل البيزنطيين، وقادها من الأمراء النوميديين **كوستيناس** و**سطوزاس** و**بيداس** و**ميناس** و **انتيلاس** و**ميناس** و**أوثابس** في فترات متقاربة ضد الحكام الذين تعاقبوا على الشمال الإفريقي من البيزنطيين؛ أمثال **سليمان الخصي** و**سرجيوس** و**أريو بندوس** و**أرتبان** و **جان طروغليتا Jean Troglita** ، ووقعت أغلب هذه المعارك في الجزائر في كل من مناطق الأوراس وتبسة، واستطاع القادة النوميديون التغلب عليهم في الكثير من المعارك. وقد بدأت هذه الحوادث عندما رحل **بليزاريوس** عن افريقيا، واستخلف عليها صولون (سليمان الخصي)، فثار الأهالي ضده وتزعم **كوتزيناس** هذه الثورة، وحاصر بجنوده قوات سليمان حتى أبادها. وعندما أعاد سليمان الكرة عام 435م انسحب كوتزيناس إلى أماكن أخرى، ولكن هجمات الأميرين النوميديين **بيداس**، و **ميناس** أحرجت موقف **الخصي** ولم تفلح عيونه في القبض على **بيداس** بجبل شلية في بلاد الأوراس. وفي ربيع عام 536م حاول **الخصي** أن يجدد الكرة على **بيداس**؛ ولكنه فشل وهرب إلى قرطاجة؛ فصقلية، حيث طلب نجدة **بليزاريوس** فلبى طلبه، وحضر إلى إفريقيا لمعالجة الموقف؛ فاجتهد ما أمكن لوضع حد لتلك الفوضى. وعندما رحل تجددت الثورة، وكانت هذه المرة ثورة الجنود والجيش بقيادة سطوزاس، فعين **جستنيان** أميرا جديدا على إفريقيا يدعى **جيرماند شقيق الإمبراطور**، فنهض بأمر الحرب ضد قائد هذه الثورة ولكن **بيداس وأريثاس** خدعاهن وقضيا على قواته عندما حاول الفرار إليهما هروبا من قوات **سطوزاس،** ففر إلى جهات موريطانيا. وفي عام 539م عزل جرمان وأعيد **سليماند الخصي إلى** ولاية إفريقيا؛ فصمم على محاربة أمراء الأوراس، فاستمال إليه الأمير **انتيلاس**، وبعث طلائع قواته إلى أوراس عام 540م، ثم لحق بها هو وفتح بعض الجهات والمناطق، وعاد إلى قرطاجة وقتله حليفه **انتيلاس** عام 545م. فعين الإمبراطور مكانه **جان طروغليتا** واليا على إفريقيا فعمل على اتمام مهمة سلفه في مقاومة الثورات الوطنية، وتابعة **بيداس** أين ما كان، وكانت خطته إحداث الخلاف والشقاق بين زعماء إفريقيا والاستعانة ببعضهم ضد البعض الآخر، وبهذه الوسيلة استطاع أن يخضع **بيداس** إلى نفوذه عام 548م. ورغم أن الحاكم البيزنطي **جان**

طروغليتا استطاع في نهاية الأمر التغلب على البربر وإخماد ثورتهم لمدة معينة حتى استأنفوا من جديد بعد وفاة الإمبراطور البيزنطي **جستينيان** سنة 565م، فخلفه **جوستين Justin I** الذي دام حكمه حتى سنة 578م، ولكن الثورات لم تنه حتى أنه في عام 598م وصل الثائرون إلى أبواب قرطاجة، وحاصروها مدة من الزمن سنة 593م.

وفي سنة 596م استدعى القائد البيزنطي على شمال إفريقيا **جرناديوس Gernadius** رؤوساء قبائل البربر إلى قصره للتفاوض معهم ثم قتلهم جميعا؛ فزادت هذه العملية الشنيعة من إصرار البربر على المضي قدما في الكفاح، وفي سنة 610م اعتلى العرش البيزنطي **هرقل Heraclius**، وفي عهده شهدت إفريقيا فترة من السلم والرخاء، وبعد موته خلفه ابنه **كونستانت الثاني Constant 2** ؛ والذي عرف عهده فترة انحطاط الإمبراطورية البيزنطية، وبينما كان العرب يكتسحون الإمبراطورية البيزنطية أعلن حاكم شمال إفريقيا **جرجير Grégoire** سنة 646م انفصاله عن الحكومة المركزية ونصب نفسه أمبراطورا، واتخذ من مدينة سبيطلة المتواجدة بالقطر التونسي في الجنوب الغربي من القيروان مقرا له. هذا وحارب البيزنطيون في عهدهم أتباع **دونا Donat** واليهود والآريين حربا دينية عنيفة، كما أن البربر رفضوا دفع الضرائب والخضوع لسلطة البيزنطيين، وكانت الجزائر في عهدهم مقسمة إلى عدة إمارات يحمها أمراء من البربر مستقلين عن الحكم البيزنطي، وهذا ما يفسر الصعوبات التي واجهت الفتوحات الإسلامية في الشمال الإفريقي.

نهاية الحكم البيزنطي:

كان البيزنطيون مثل أسلافهم الرومان؛ يمارسون سياسة العسف والظلم والاضطهاد ضد الأهالي الذين نفروا من سلطتهم، وامتنعوا عن تأييدهم في كل الظروف، ومع أن البيزنطيين في عهد **جستنيان** استطاعوا أن يسيطروا على البلاد نظرا لما يتمتع به الإمبراطور من سمعة وشخصية وقوة وحكمة، ولكن خلفاءه من بعده كانوا ضعافا شغلتهم حروبهم ضد الفرس عن العناية بإفريقيا ومراقبة ولايتها. وفي عام 602م ثار **فوكاس** قائد الجيوش البيزنطية بالدانوب على الإمبراطور **موريس**، وأعلن نفسه إمبراطورا على الدولة البيزنطية. فغضب **هرقل** الحاكم العام وقائد الجيوش البيزنطية بإفريقيا على هذا العمل، وثار على فوكاس عام 608م؛ وقطع عنه شحنات القمح التي كانت ترسل إلى العاصمة البيزنطية، ثم استجاب لرغبات البيزنطيين الذين رجوه أن يخلصهم من ديكتاتورية **فوكاس**، ويستلم عرش الدولة، وبعث إليهم ولده الذي كان يسمى **هرقل** أيضا على رأس حملة بحرية أقلعت من قرطاجة إلى سالونيك في شرقي البحر الأبيض المتوسط. وفي نفس الوقت وجه حملة أخرى برية بقيادة نيكتاس ابن عمه **جريجوريوس الأول** عن طريق ليبيا، ومصر، والشام. وتمكن **هرقل الصغير** من الوصول قبله فقتل **فوكاس**، واستولى على عرش الدولة البيزنطية وأصبح امبراطورا.

وعندما مات **هرقل الكبير** بإفريقيا عام 610م، عين الإمبراطور **هرقل الصغير**؛ عمه البطريق **جريجوريوس** حاكما عاما على إفريقيا، ثم **قيصريوس**، ثم **نيكتاس** ابن **جريجوريوس الأول**. وبعد **نيكتاس** تولى ابنه **جريجوريوس الثاني "جرجير"** الذي زحف خلال ولايته العرب الفاتحون من الشرق عام 27ه،/647م بقيادة حاكم مصر **عبد الله بن سعد بن أبي سرح**، وحاصروه في مدينة **سبيطلة** التي تقع في الوسط التونسي جنوب مدينة القيروان الحالية، وتمكنوا من قتله وتشتيت جموعه، وبذلك انطوت صفحات تاريخ العهود المظلمة؛ ليبدأ عهد الجزائر العربية المسلمة.

لم يترك البيزنطيون آثارا عمرانية تذكر تمجد مرورهم بإفريقيا الشمالية، وذلك على خلاف الرومان، فكان اهتمامهم منصبا على بناء القلاع والحصون، وتعبيد الطرق، وتشجيع الفلاحة لخدمة وطنهم الأم، حيث لم يقم البيزنطيون بعمل ذي بال في ميادين الإصلاح، ولم يخلفوا وراءهم سوى بعض الحصون والقلاع العسكرية كما ذكرنا، فلم تزدهر الثقافة، ولم يكثر العمران.

ولعل ما يمكن أن يسجل للبيزنطيين هو أنهم قاموا **بتمديد الطرق وتعبيدها** بين مختلف المناطق التي سيطروا عليها، **وشجعوا حركة الفلاحة والزراعة** لكن لينتفعوا بها هم دون الأهالي. فالطرق من أجل تسهيل الربط بين مختلف الحاميات العسكرية والإدارات المدنية، والفلاحة من أجل تموين العاصمة البيزنطية قبل غيرها، وتلك هي سياسة المستعمر في كل العصور. أراد **جستنيان** أن يمنح المقاطعات الإدارة التي عرفها قديما لمحو ذكرى " عبودية الوندال". فجعل على رأس الحكم **عامل**، أي شخصية كبيرة تقيم في **قرطاجة** عاصمة أسقفية خاصة كذلك. كان لعامل الحاكمية صلاحيات سامية: تشريع وإدارة وعدل ومالية. وتحت سلطة سبع حكومات، من بينها في الجزائر، حكومات نوميديا وموريطانيا الأولى أو السطايفية موريطانيا الثانية (القيصرية والطنجية)، كان يقودها رؤساء لهم كل صلاحيات الحكام الرومان القدامى. احتكر الإمبراطور لنفسه استغلال دافعي الضرائب. كانت أداة التواجد البيزنطي هي جيش الاحتلال قبل كل شيء، وزعت فرق الحدود بين مسيرات مختلفة عسكرية، والبعض الآخر منها وزع على البلاد. وقسمت الجزائر من وجهة النظر العسكرية إلى دائرتين: نوميديا موريطانيا على رأسيهما مقيمان في قسنطينة وقيصرية. وغطى جستنيان الحدود العسكرية بالعديد من المنشآت العسكرية.